بَيْنَ الْعَقْلِ وَالْهَوَى

قراءة معاصرة في مرآة الوحي من القرآن والسنة



إبراهيم مصطفى شحاتة

المقدمة

ليست النفس لغزًا غامضًا، ولا العقل آلة مجردة من الشعور، ولا السلوك مجرد فعل يُقاس على الظاهر. الإنسان ـ في جوهره ـ كائن مركب، يتشابك فيه الفكر مع الوجدان، والرغبة مع الإدراك، والاختيار مع الضرورة. وقد طالما حاول الفكر الإنساني أن يُمسك بطرف هذا الخيط، عبر فلسفات متراكبة، ونظريات متناقضة، ومدارس تفسر السلوك على ضوء العقد أو الطفولة أو البنية المجتمعية أو حتى الصدفة العمياء.

ولكننا هنا لا نُعيد اجترار تلك المحاولات، ولا نُجمّلها بمسحة دينية. نحن نسلك طريقًا مغايرًا؛ نبدأ من الوحي لا من التجربة، وننظر إلى الإنسان كما عرّفه خالقه، لا كما وصفه سواه.

في هذا الكتاب، نبحث عن منطق النفس، لا من خلال قواعد القياس أو الاستنتاج، بل من خلال المساحات التي يتحرك فيها الإنسان بين وعيه ونزواته، بين صوته الداخلي وهمسات هواه، بين نداء العقل وجاذبية الغريزة.

نحن لا نتحدث عن "العقل" كما يُفهم في علم المنطق الكلاسيكي، بل نتحدث عن آلية التفكير الإنساني كما تُصوّرها الآيات. ولا نحلّل النفس بناءً على مدارس علم النفس الغربية، بل نستخرج منها ما هو حيٌّ في النص القرآني وحديث النبي ﷺ، نُفتّش في الحوارات، والانفعالات، والتناقضات، لنفهم كيف يرى الوحي طبيعة الإنسان.

فما العقل إلا مصباح، وما النفس إلا ساحة، وما السلوك إلا مرآة، ولكن النور لا ينبعث إلا إذا وُجد من يغذّيه، والمرآة لا تُظهر الحقيقة إلا إذا صُقلت.

لذلك، لا تُقاس قيمة هذا الكتاب بعدد صفحاته، بل بقدرته على أن يفتح نافذة داخل القارئ، يرى فيها نفسه كما لم يرها من قبل، ويسمع صوته الداخلي وقد انكشف أمامه بنور الوحي، لا بتشويش العالم.

هذا الكتاب ليس في التربية، ولا في الفلسفة، ولا في علم النفس... إنه محاولة لرسم "خريطة الإنسان" كما هي في القرآن، لا كما تمناها المفكرون، ولا كما شرّحها العلماء.
فإن أحسست وأنت تقرأ أن شيئًا داخلك قد اهتز، فاعلم أنك بدأت أول خطوة في فهم من تكون.

الكاتب

إبراهيم مصطفى شحاته

الباب الأول: الإنسان بين طبقات الذات

✦ الجزء الأول: كيف يتكوّن الإنسان؟

حين ننظر إلى الإنسان كما تصفه العلوم الحديثة، نجد تعريفاتٍ لا تكاد تتجاوز الجسد والعقل والعاطفة؛ ولكن حين نقرأ القرآن، يظهر لنا كائنٌ معقّد الطبقات، متعدّد المستويات، لا يكفي لفهمه علم النفس، ولا يقدر على تحليله علم الأعصاب، ولا تُدرك حقيقته النماذج السلوكية أو المعادلات الإدراكية.

القرآن لا يقدّم الإنسان في صورة واحدة، بل يُظهره كمرآة ذات وجوه: نفسٌ تسوقه، قلبٌ ينبض فيه، فؤادٌ يتفكر، لبٌّ يتأمل، روحٌ تنبض بالسر، وعقلٌ يزن ويفكر ويختار. هذه ليست مصطلحات مترادفة، بل طبقات متداخلة تُشكّل معًا هوية الإنسان.

فحين يقول الله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، فنحن أمام كيانٍ قابل للانحراف كما هو قابل للارتقاء.

وحين يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، يُخبرنا أن القلب ليس فقط مركز العاطفة، بل أداة فقهٍ وإدراك.

وحين يُخاطب أولي الألباب، فإنه لا يتحدث إلى أصحاب العقول بالمفهوم المجرّد، بل إلى الذين تحررت عقولهم من التلوث، وصفت قلوبهم من الغفلة، فأصبحوا يُبصرون ببصيرة لا بمجرد تفكير.

إذًا، الإنسان في القرآن ليس مجرد عقل يفكر، أو نفس تشتهي، بل هو كيانٌ حيّ يعيش في صراع دائم بين قواه الداخلية.

قد يسكنه نور، وقد يسكنه ظلام، وقد يتصارع فيه الإثنان لسنوات دون أن يدرك أحدهما النصر.

✦ الجزء الثاني: العقل في القرآن ليس ما تعتقده

الناس حين يسمعون كلمة "عقل"، يتبادر إلى أذهانهم صورة ذهنية مرتبطة بالدماغ والتفكير المجرد، ولكن القرآن لا يستخدم لفظ "عقل" بهذه الطريقة المادية، بل يتعامل معه كـ قوة روحية أخلاقية إدراكية، تسكن الإنسان، وتمنحه القدرة على التمييز بين الهُدى والضلال.

تأمّل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، لم يقل الذين لا يسمعون أو لا يرون، بل الذين لا يعقلون، وكأن الفشل في الفهم ليس عيبًا في الأذن أو العين، بل في غياب عقلٍ فاعلٍ حيّ.

وفي موضع آخر: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، فالقلب هنا هو مركز الفقه، وليس فقط موضع الحب والمشاعر.

القرآن يُقدّم العقل كوظيفة روحية عقلية داخلية، ليست مفصولة عن الضمير، ولا عن الإيمان، ولا عن الأخلاق. ولذلك، كان "الجنون" في المفهوم القرآني ليس مجرد اختلال عقلي، بل انطفاء نور الإدراك الذي يُميز بين الحق والباطل.

✦ الجزء الثالث: النفس ليست كيانًا واحدًا

لو كانت النفس مجرد شيء ثابت في داخل الإنسان، ما كانت لتُوصف بأنها "أمّارة بالسوء" في موضع، و**"لوّامة"** في آخر، و**"مطمئنة"** في موضع ثالث. هذه ليست صفات لحالات متفرقة، بل مراحل تكوينية وتحولية تمرّ بها النفس بحسب ما تتلقاه من المؤثرات، وما تختاره من السلوك.

النفس الأمّارة هي التي تفتح الباب للشهوة بلا تردد، وتأمر الجسد بالاستسلام، ولا ترى في الضعف عيبًا، بل تجعله عادة.

النفس اللوّامة، لا تزال تحمل ضعف الأمّارة، ولكنها بدأت تشعر بوخز الضمير، وتحاسب صاحبها، وتبكي وتندم.

أما النفس المطمئنة، فهي التي بلغت درجة من الصفاء والسكينة، حتى أصبحت تقبل الحق بغير جدال، وتقاوم الباطل دون صراخ.

هذه النفس تتغير، ليست حالة واحدة، بل كائن متحوّل. لذلك، من الخطأ أن نقول "هو إنسان سيئ" أو "نفسه خبيثة"، لأن كل نفس يُمكن أن تمرّ بمرحلة انحراف، ثم تهتدي، أو تهتدي ثم تنتكس، والمسؤولية تقع على صاحب النفس، لا النفس نفسها.

✦ الجزء الرابع: القلب... العقل الحقيقي؟

لو تأملنا النصوص التي تتحدث عن القلب، لوجدنا أن مكانته في القرآن ليست أقل من مكانة العقل، بل قد تتجاوزه.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، فجعل عدم التدبر سببه القلب المقفول، لا العقل المعطل.

القلب ـ في منطق القرآن ـ هو بيت التلقي، حيث يصل الخطاب الإلهي فيُصدّق أو يُكذّب، يُفتح أو يُغلق، يلين أو يقسو.

والقلب حين يمتلئ بالهوى، لا تعود العيون قادرة على الإبصار، ولا الأذن قادرة على السماع، لأن الخلل في مركز التوجيه لا في الأدوات.

وهذا هو السر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

✦ الجزء الخامس: الإنسان كائن داخلي قبل أن يكون خارجيًا

المدارس الحديثة تُركّز على السلوك الظاهري، وعلى تفسير ما نراه من تصرفات، ولكن القرآن يُصوّر الإنسان من الداخل أولًا.

فأنت لا تُحاسب على فعل فقط، بل على نية، وعلى تفكير، وعلى شعور مرّ بك ولم ترفضه.

كل فكرة تمرّ بعقلك، كل رغبة اشتعلت في صدرك، كل أمنية دُفنت في قلبك، هي جزءٍ من إنسانك الحقيقي، لا تقل أهمية عن سلوكك الظاهري.

ولذلك، فإن الوحي لا يُقوّم السلوك فقط، بل يُعيد بناء الذات من داخلها.

فالصلاة ليست فقط أفعال ركوع وسجود، بل وسيلة لصناعة نفسٍ خاشعة.

والصيا م ليس فقط عن الطعا م، بل تمرين على كسر سلطان النفس.

والزكاة ليست مالًا يُخرج، بل تطهيراً داخليًا من عبودية التملك.

الباب الثاني: منطق الإنسان في القرآن – ليس كما نعرفه

✦ الجزء الأول: المنطق كما يعرفه الناس... والفرق الكبير

حين يُقال "منطق"، تتجه الأذهان إلى قواعد صارمة: مقدّمات واستنتاجات، قوانين صورية، ومصطلحات من قبيل "القياس" و"الحدّ الأوسط"، وكأن المنطق كُتلة جامدة لا حياة فيها.

لكن هذا النمط من التفكير ليس هو ما يقصده القرآن حين يتحدث عن العقل أو يُمارس الحوار.

المنطق الذي نقرأه في كتاب الله ليس هندسة عقلية باردة، بل منطق حيٌّ نابض، يتفاعل مع النفس، ويخاطب القلب، ويكشف التناقض لا ليُدين، بل ليُحرر.

القرآن لا يهتم فقط بصحة المقدمة أو استقامة النتيجة، بل يهتم بما وراء التفكير: لماذا تُفكر بهذه الطريقة؟ من أين تنطلق دوافعك؟ هل تبحث عن الحقيقة فعلًا، أم تُبرّر موقفًا باطنيًا قررته النفس؟

هذا النوع من "المنطق القرآني" لا يبحث عن المعادلات، بل يبحث عن الإنسان نفسه، في لحظة تفكيره، في لحظة كذبه على نفسه، في لحظة قراره حين يتعارض العقل مع الهوى.

✦ الجزء الثاني: القرآن لا يُخاطب العقل المجرد... بل الإنسان الكامل

أغلب الخطابات العقلية في القرآن لا تأتي على طريقة "افرض كذا ينتج كذا"، بل تأتي بأسلوب يخاطب الإنسان في لحظة إدراكه الباطني.

تأمّل قوله تعالى:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾

هنا، لا يُقدّم إبراهيم عليه السلام حجة فلسفية نظرية، بل يُواجه القوم بمنطق الواقع، بمنطق الشعور، بمنطق الخجل مما يفعلون دون أن يدركوا.

هذا منطق يستخرج الحقيقة من تحت الركام، لا يُلقيها على الناس من علٍ.

وحين يقول الله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

فهنا نحن أمام منطق يُواجه النسيان، لا الجهل فقط. هو يُذكّرك بما تعرفه في قلبك، ولكنك تهرب منه لعجز أو عناد.

✦ الجزء الثالث: منطق الغافل... ومنطق المتفكّر

القرآن يُفرّق بدقة بين نوعين من التفكير: تفكير غافل، وتفكير مُتفكّر.

الغافل قد يحفظ معلومات، ويُرتّب نتائج، لكنه لا يرى نفسه، ولا يتساءل لماذا يُفكر أصلاً.

أما المتفكّر فهو الذي يرى التفكير فعلاً أخلاقياً، يترتّب عليه مسؤوليّة.

يقول اللّه تعالى:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

وهذا سؤال لا يُجيب عليه العلم التجريبي، بل يُجيب عليه الوعي العميق.

لأنك قد تعرف جسدك بكل تفاصيله، لكنك لا تبصر حقيقتك.

فالقرآن لا يُريد منك أن تكون مفكراً خارجيًا، بل متأملًا داخليًا، يرى كيف يتحرك هواه مع أفكاره، وكيف يبرّر خطأه بمنطقٍ شكلي فارغ.

✦ الجزء الرابع: كشف التناقض... المنطق الأعلى

من أعمق أساليب القرآن في مخاطبة العقل: كشف التناقض الداخلي في التفكير والسلوك، لا عبر الجدل العقيم، بل بإبراز اللا معقول المغلف بغلاف المنطق.

قال تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

فها هو الإنسان يستخد م علمه ليُضلّ نفسه. ليس جاهلًا، بل عالمًا، لكن علمه خضع للهوى، فتاه.

وفي موضع آخر:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾

أي أنهم يُنكرون بألسنتهم ما يعرفونه يقينًا بقلوبهم.

هذا ليس مجرد كذب، بل تشقق داخلي في النفس، يحوّل الإنسان إلى مخلوق مزدوج: يعرف الحقيقة ويُنكرها في ذات اللحظة.

المنطق القرآني لا يكتفي بالكشف عن الخطأ، بل يعرّي الخداع النفسي المغلّف بالمنطق، ويُرغم النفس على مواجهة حقيقتها بصمت.

✦ الجزء الخامس: لماذا يفكر الإنسان؟ سؤال لا تطرحه المدارس الحديثة

السؤال الذي لا يطرحه المنطق التقليدي هو: لماذا يُفكر الإنسان أصلاً؟

هل يُفكر لأنه يحب الحقيقة؟ أم لأنه يريد أن يُبرّر ما يرغب فيه؟

هل التفكير وظيفة عقلية أم وسيلة لخداع النفس؟

القرآن يطرح هذه الأسئلة ضمناً حين يُظهر شخصيات تفكّر وتصل إلى الخطأ لأنها تفكر بدوافع منحرفة.

فأنت لا تُحاسب فقط على ما تَفكّر فيه، بل على نية تفكيرك.

هل تريد الحق؟ أم تبحث عن ثغرة للهرب منه؟

هنا تتجلّى عبقرية الوحي، حين يُحوّل "المنطق" من مهارة عقلية إلى مسؤولية أخلاقية، ويجعل التفكير نفسه فعلاً يُثاب أو يُعاقب عليه الإنسان.

الباب الثالث: النفس ككيان تفاعلي – ساحة معركة لا كائن ثابت

✦ الجزء الأول: النفس ليست شيئًا واحداً... بل ساحة تشتبك فيها القوى

حين نُفكّر في النفس، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن لدى معظم الناس أنها كيان ساكن، محدد، معروف الهوية؛ إمّا طيّبة أو شرّيرة، هادئة أو مضطربة.

لكن القرآن لا يُقدّم النفس بهذه الصورة التبسيطية، بل يُظهرها على حقيقتها: ساحة معركة دائمة، تتحرّك فيها تيارات متناقضة من الدوافع، والأفكار، والمشاعر، والانحرافات، والندم، والسكينة، والتردّد.

النفس في المفهوم القرآني ليست قالبًا ثابتًا، بل حالة متغيرة، قابلة للانتقال، خاضعة للتشكُّل.

فهي في لحظة واحدة قد تكون أمّارة، ثم لوّامة، ثم تميل إلى الاطمئنان، ثم تعود للضعف، ثم تتجلّى في لحظة صدق خالدة، ثم تنكسر من جديد.

هي ليست "شخصيتك" كما يصفها علم النفس الحديث، بل "أنتَ في حقيقتك المجردة عن الأقنعة الاجتماعية والمفاهيم السطحية".

✦ الجزء الثاني: النفس الأمّارة بالسوء... ليست شريرة بطبعها

قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾،

وهنا نجد وصفًا صريحًا لما تقوم به النفس حين تُترك بغير مراقبة: إنها تأمر، لا تُشير، ولا تقترح، بل تدفع دفعًا نحو السوء.

لكن هذا لا يعني أن النفس شريرة بطبيعتها، بل أنها ببساطة تتبع الدافع الأقرب، الأغلب، الأقوى.

فإن كان الجوع، دعت للطعام، وإن كان الغضب، دعت للانتقام، وإن كان الحسد، دفعت للبغض، وإن كان الشك، أغوت بالكذب.

هي تبحث عن اللذة، وعن السلامة الآنية، وعن المصلحة العاجلة.

ولا ترى إلا اللحظة، ولا تنظر في العاقبة، ولا تعبأ بالضمير، ما لم يُرغمها عليه العقل أو يُلجمها به الإيمان.

النفس الأمّارة لا تستأذن، ولا تشرح، بل تدفعك نحو الفعل كما تدفع الغريزة حيوانًا جائعًا نحو الفريسة.

ولكنها في جوهرها ليست شرًا مطلقًا، بل أداة بدائية للحفاظ على البقاء، تحتاج إلى تهذيب لا إلى قمع، وتوجيه لا إلى تدمير.

✦ الجزء الثالث: النفس اللوّامة... بداية الصحو لا نهايته

حين يبدأ الإنسان بمحاسبة نفسه، والشعور بالندم، والتردّد قبل الخطأ، والندم بعده، والدخول في دوائر من الحوار الداخلي بين ما فعله وما كان يجب أن يفعله، فإن نفسه قد انتقلت إلى مرحلة "اللوّامة".

قال الله تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾،

وهنا نجد أن الله يُقسم بها، ويُكرّمها، لأنها دليل حياة داخلية، ودليل على أن النفس لم تمت تماماً تحت ركام العادة والهوى.

النفس اللوّامة ليست مريحة، بل متعبة، مُرهِقة، تُربك صاحبها، وتجعله يُعيد التفكير ألف مرة، وتحمّله أوزاراً شعورية حتى لو لم يراه أحد.

ولكنها — رغم ألمها — أول عتبات الصعود نحو الحقيقة، وأول إشارة إلى أن الإنسان بدأ يسمع صوتًا آخر غير صوت اللذة أو المصلحة.

وهذا الصوت، وإن لم يكن عقلًا خالصًا، إلا أنه نداء الفطرة التي لم تُطفأ بعد.

فالنفس اللوّامة هي صوتك الداخلي حين يُقاومك، لا حين يُبرّرك، وهي جزء من النظام الأخلاقي الذي زرعه الله فيك لتعرف الخطأ قبل أن يُقال لك أنه خطأ.

✦ الجزء الرابع: النفس المطمئنة... ليست وهمًا بل ذروة الارتقاء

كثير من الناس يظن أن النفس المطمئنة مقام للأنبياء فقط، أو أنها حالة عابرة لا تدوم، ولكن القرآن يُخاطب النفس المطمئنة وكأنها حالة يمكن بلوغها، لا وهم مستحيل.

قال تعالى:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾،

وهنا نقرأ أن النفس المطمئنة هي النفس التي رجعت، واختارت الرجوع، وسلكت طريق التوازن، لا النفس التي عاشت بلا صراع.

الطمأنينة ليست غياب الشهوة، ولا انعدام الغضب، بل القدرة على تهذيب الاضطراب دون إنكاره، وعلى احتواء الضعف دون الاستسلام له.

هي النفس التي تعلم أن رغبتها في الانتقام ليست برهانًا على الحق، وأن ألمها لا يُبرّر ظلمها، وأنها لا تحتاج دائمًا إلى الرد، ولا دائمًا إلى الانتصار، بل إلى السلام الداخلي مع الله ومع ذاتها.

هذه النفس حين تخطئ، تعود، لا تهرب. وحين تُبتلى، تصبر، لا تنهار.

وحين تُظلم، تسامح إن قدرت، أو تصبر إن عجزت.

هي نفسٌ تُشبه النهر الهادئ، قد يُلقى فيه حجر، لكن لا يخرج عن مجراه.

✦ الجزء الخامس: النفس المتحوّلة... أنت لست شخصًا واحدًا على الدوام

أحد أعظم أسرار النفس التي يُظهرها القرآن، ويغفل عنها الناس، هو أنها متغيّرة، لا تثبت على حال.

فأنت قد تكون أمينًا في موقف، خائنًا في آخر، كريمًا في يوم، شحيحًا في يوم آخر.

وهذا ليس نفاقًا، بل حقيقة النفس البشرية، التي تتحرك بين دوافعها وذكرياتها ومخاوفها وظروفها.

النفس ليست "طبيعة واحدة"، بل كيان تفاعلي، يتغيّر باستمرار، ويُشكل في كل لحظة سلوكًا جديدًا بحسب المعطيات.

ولذلك، فإن أحد أكبر الأخطاء في الحكم على البشر هو تصنيفهم حسب لحظة واحدة: "فلان كذاب"، "فلان خبيث"، "فلان طيّب".

والقرآن نفسه لم يُغلق الباب أمام من تغيّرت نفسه، بل جعله مفتوحًا لكل من عاد، حتى وإن كان من أعتى المجرمين.

قال تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾

وكأن التوبة ليست فقط فعلًا دينيًا، بل حالة تحوّل في طبيعة النفس، تنتقل بها من الانحدار إلى الارتقاء.

وهذا يجعلنا نؤمن أن كل نفس فيها قابلية للهداية، وكل إنسان فيه بذرة يمكن أن تُسقى بنور الوحي، فتنبت من جديد.

الباب الرابع: السلوك لا يُقاس بالظاهر – منطق النية والسريرة

✦ الجزء الأول: كيف يَفعل الإنسان شيئًا لا يُشبهه؟

في كثير من الأحيان، نرى إنسانًا يفعل ما لم نتوقعه منه، شخصًا طيّب المعشر يكذب، أو صادقًا يغدر، أو عاقلًا ينهار.

فنقول بدهشة: "لم أكن أظن أنه سيفعل هذا". ولكن الحقيقة أن الإنسان لا يتحرّك دائمًا بدافع واحد، ولا يتصرّف دائمًا وفق الصورة التي يَظهر بها.

القرآن لا يَزن الإنسان بفعله الظاهري وحده، بل بما يدور خلف الفعل، في عمق النية، وبواطن الدافع.

قال النبي ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»

وهذا الحديث ليس قاعدة في الفقه فقط، بل منظومة أخلاقية وفكرية عميقة تقول إن السلوك ليس معياراً كافياً للحكم على الإنسان، لأن الفعل الظاهري قد يخفي نية مضادة، أو دافعًا مجهولًا، أو اضطراراً قاسيًا.

إن ما نراه لا يُشبه دائمًا ما هو موجود في الداخل، فالناس تُخفي أكثر مما تُظهر، وتبرر لأنفسها أفعالًا لا تتفق مع ما تؤمن به، وهنا تكمن معضلة التقييم الظاهري للسلوك.

✦ الجزء الثاني: النية ليست أمنية... بل محرّك فعلي للسلوك

في اللغة اليومية، تختلط النية بالأمنية؛ فيقول أحدهم: "كنت أنوي أن أفعل كذا"، ويقصد أنه تمنّى ذلك في نفسه.

لكن في المنطق القرآني والنبوي، النية ليست خاطرة عابرة، ولا إحساساً عاطفيًا، بل حركة داخلية حقيقية نحو الفعل، حتى وإن لم يتحقق ماديًا.

قال النبي ﷺ:

«إذا همَّ العبدُ بالحسنةِ فلم يعملْها، كُتِبَتْ له حسنةٌ كاملةٌ»

وهذا دليل على أن النية فعلٌ له وزنٌ في ميزان اللّه، حتى وإن لم يتحول إلى سلوك ظاهر.

بل إن كثيراً من الأفعال قد تكون صحيحة ظاهريًا، لكنها باطلة في حقيقتها بسبب نية فاسدة، وهذا ما يجعل الميزان الإلهي يختلف كليًا عن الميزان البشري.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾

ليس لأن العمل لم يُنجز، بل لأن النية التي دفعته لم تكن للّه، ولا للخير، بل لمصلحة خفية أو رياء أو كِبر.

✦ الجزء الثالث: السلوك المزيف... حين تنطق الأفعال ولا تقول الحقيقة

قد يُصلي إنسان، ولا يعرف الطمأنينة.

وقد يتصدّق، ولا يشعر بالإحسان.

وقد يبكي في العلن، وقلبه ميت.

وقد يضحك، وفي داخله عذاب لا يُحتمل.

السلوك الظاهري، في ذاته، ليس برهانًا قاطعًا على شيء.

فالقرآن ذكر المنافقين وهم يُظهرون الطاعة ويُخفون الكفر، وجعلهم أشد خطراً من الكافر الصريح، لأنهم يُتقنون التمثيل، ويُجيدون تقليد السلوك الصالح بلا نية صادقة.

قال تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

هذا النوع من السلوك لا يُصلح النفس، ولا يُرضي اللّه، بل يُفسد حتى ظن الإنسان بنفسه، فيظن أنه بخير، وهو في قاع الغفلة.

السلوك المزوّر أخطر من الخطأ الظاهر، لأنه يُضلّ صاحبه قبل أن يُضلّ الناس، ويجعله يعيش في وهم الفضيلة.

✦ الجزء الرابع: النية المركّبة... حين تنقسم دوافعك بلا أن تدري

من أعمق أسرار النفس البشرية التي يُظهرها القرآن أن الإنسان قد يحمل أكثر من نية في الوقت نفسه، بعضها ظاهر، وبعضها مدفون.

فقد تُحسن إلى أحدهم، بدافع الرحمة، ولكن في داخلك خيط دقيق من حب الظهور.

وقد تقول الحق في مجلسٍ ما، ولكن في قلبك خيط غير مرئي من الشماتة بالآخرين.

وقد تعتذر، ولكن في عمقك شعور بالفوقية.

هذه الحالات لا يُمكن للناس أن تراها، ولا حتى للعقل الواعي أن يُدركها بسهولة، لأنها تسكن في طبقات النفس العميقة، وتُشكّل ما يمكن تسميته بـ"النية المركّبة".

وفي هذا يقول الحسن البصري رحمه اللّه:

"ما عالجتُ شيئًا أشدّ عليّ من نيّتي، إنها تتقلّب عليّ كل حين".

والنية حين تتداخل فيها الدوافع، يُصبح الفعل معقّداً، ومقياس الثواب والعقاب عليه ليس في ظاهره، بل في ما يغلب من دوافعه الخفية.

✦ الجزء الخامس: السلوك في منطق الوحي... امتحان داخلي لا أداء خارجي

الناس تعتبر السلوك أداة تقييم للآخرين، ولكن الوحي يُقدّمه كأداة لاختبار النفس نفسها.

فكل فعل تقوم به، هو مرآة لما في داخلك، فإن فعلت الخير لتُجامل، فلست فاعل خير، وإن صبرت لتُظهر قوة، فلست صبوراً.

قال الله تعالى:

﴿إِن تُبْدُوا صَدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

هذا بيان صريح بأن القيمة ليست في الفعل، بل في الطريقة التي يُنفّذ بها، وفي الشعور الداخلي المصاحب له.

والوحي لا يُركّز على الظاهر لأن الله لا ينخدع بالشكل، ولا يلتفت إلى ما يراه الناس، بل كما في الحديث:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

السلوك، إذًا، ليس فصلًا خارجيًا عن النفس، بل صدى لما بداخلها، وكل حركة جسد هي انعكاس لصراع داخلي أو صفاء، ولا يُمكن فهمها إلا بفهم منطق النفس العميق.

الباب الخامس: الإرادة الحرة – هل هي وَهْم؟

✦ الجزء الأول: أين تقف إرادتك وأين يبدأ القدر؟

الإنسان يشعر أنه حر، يتخذ قراراته بنفسه، ويختار بين الخيارات المتاحة له، ويتحمّل نتائج أفعاله.

ولكن حين يصطدم بواقع لا يريده، أو مصيبة لم يخترها، يبدأ السؤال الصعب في الظهور:

هل أنا من قرّرت؟ أم أنني مسيّر بشيء لا أراه؟

القرآن لا يُنكر حرية الإنسان، لكنه يُعيد تعريفها.

يقول تعالى:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

حرية واضحة في اتخاذ الموقف… ولكن في موضع آخر يقول:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾

فكيف نفهم ذلك؟

الفهم العميق يبدأ حين ندرك أن إرادة الإنسان موجودة، لكنها تعمل داخل حدودٍ أوسع اسمها مشيئة اللّه.

فأنت تختار، ولكنك لا تختار أن تختار، ولا تصنع الظروف التي وُجدت فيها.

أنت تعمل بحرية داخل قَدَر، كما يعمل القبطان بحرية داخل البحر… لكنه لا يصنع البحر، ولا يتحكم في موجه.

✦ الجزء الثاني: منطق المحاسبة في ضوء الإرادة

إن قِيمة المسؤولية في الإسلام قائمة على أن الإنسان مُحاسب على ما يختاره بحرية.

فالذي يُجبر على قول أو فعل، لا يؤاخذ عليه، وقد قال النبي ﷺ:

«رُفع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه»

وهذا يعني أن الوحي يميّز بين ما كان عن وعي واختيار، وما كان عن جهل أو قهر أو غفلة.

وعليه، فإن الإنسان لا يُحاسب على النتائج، بل على النية والعمل ضمن حدود استطاعته.

فالعبد الذي بذل جهده ليهتدي، ثم تعثّر، ليس كمن رضي بالضياع ولم يُبالِ.

قال اللّه تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

فما يقع داخل الوسع، هو محل الاختيار والمحاسبة، وما يقع خارجه، فليس من شأن الإنسان ولا يُطلب منه تغييره.

✦ الجزء الثالث: وهم السيطرة... حين تظن أنك تملك كل شيء

في زمنٍ يُمجد الإنجاز الفردي، ويُصدّر للناس أوهام "أنت من تصنع قدرك"، و"ما تريده سيتحقق"، يقع الإنسان في وهم السيطرة المطلقة.

لكن الحقيقة، كما يُعلّمنا القرآن، أن إرادتك ليست سيّدة الوجود، بل جزء صغير من شبكة معقدة من الأسباب والموانع.

قال اللّه تعالى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾

حين يظن الإنسان أن إرادته تكفي، وأنه قادر على كل شيء، يبدأ الطغيان، ويغفل عن حقيقة نفسه المحدودة.

التحرر الحقيقي لا يكون بالسيطرة الكاملة، بل بالقبول الواعي بأن الإرادة تعمل في حدود، وأن الإنسان عبدٌ للّه، لا ربٌّ لنفسه.

✦ الجزء الرابع: الإرادة المريضة... حين تريد ما يؤذيك

ليست كل إرادة دليلًا على الصحة النفسية أو النضج العقلي.

قد يريد الإنسان شيئًا، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه ضار، لكنه لا يملك القوة لرفضه.

وقد يسعى إلى ما يُهلكه، ويُسمّي ذلك حرية.

قال اللّه تعالى عن المشركين:

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾

أي أن التعلّق المرضي بما اختاروه قد صار جزءاً من داخلهم، حتى لم يقدروا على التخلي عنه، رغم علمهم ببطلانه.

هنا يظهر منطق القرآن العلاجي: أن الإرادة يمكن أن تمرض، وأن المطلوب من الإنسان ليس فقط أن "يُريد"، بل أن يتحقق من صحة ما يُريده.

فالإرادة الخاطئة قد تبدو حرة، لكنها في الحقيقة مكبّلة بالهوى، أو الجهل، أو الاضطراب النفسي.

✦ الجزء الخامس: التوازن بين الإيمان بالقدر والعمل بالأسباب

حين يتأمل الإنسان النصوص، يجد أن القرآن لا يجعلنا نستسلم للقدر، ولا يجعلنا نتوهّم أننا نملكه.

بل يُربينا على التوازن العميق بين الإيمان بأن اللّه هو الذي يَقدُر، وأن علينا أن نعمل بما في وسعنا.

قال النبي ﷺ:

«احرص على ما ينفعك، واستعن باللّه، ولا تعجز»

هذه الجملة تلخّص العلاقة بين الإرادة الحرة والقدر:

افعل، واسعَ، وواجه، ولا تظن أنك وحدك، بل استعن، وتوكّل، وسلم بعد أن تُكمل الأسباب.

فالحرية الحقيقية ليست في فعل ما تشاء، بل في أن تُريد ما أراده اللّه لك من الخير، ثم تسعى إليه بعزمٍ وتوكل.

الباب السادس: الصراع بين العقل والنفس – من يقود من؟

✦ الجزء الأول: ماهي النفس؟ وما دورها في القرار والسلوك؟

حين يُذكر مصطلح النفس، يغلب على الناس أن يتصوروه شيئًا داخليًا غامضًا، لكن القرآن يُعامل النفس باعتبارها كيانًا مسؤولًا وقابلًا للتهذيب أو التردي.

قال تعالى:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾

فالنفس قد تأمر، لكنها لا تملك القوة وحدها، بل تحتاج إلى إذنٍ من العقل أو ضعفٍ فيه.

في المقابل، نجد أيضًا:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾

فالنفس قابلة للارتقاء... تتغير، وتتهذّب، وتستقيم.

النفس هي مجموع ميولك العاطفية، وشهواتك، وأهوائك، ومخاوفك، وطموحاتك.

أما العقل، فهو ما يُقيّم ويُمحّص ويُوازن.

وهنا يبدأ الصراع:

هل سيقود الإنسان بعقله؟ أم تقوده نفسه إلى حيث تشتهي؟

✦ الجزء الثاني: العقل في القرآن — أداة تفكر أم أداة تحكم؟

القرآن حين يتحدث عن العقل، لا يضعه في مرتبة ثانوية.

بل يُكرّر نداءه للناس بـ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

بل ويُحمّل الإنسان مسؤولية عدم استعمال العقل، كسببٍ للهلاك!

قال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

فالعقل ليس مجرد أداة تحليل، بل واجبٌ شرعيٌ أن يكون هو القائد الأعلى فيك.

وليس معنى هذا أن العقل يُقصي المشاعر، بل يُهذبها ويضعها في مكانها المناسب.

✦ الجزء الثالث: النفس الغضبى، النفس الشهوانية، النفس القَلِقة... وامتحان السيطرة

علم النفس الحديث قسّم الدوافع البشرية إلى عدّة أنواع، لكن القرآن قسّم النفس بناءً على سلوكها:

﴿النفس الأمّارة﴾: تُملي عليك، تجرّك.

﴿النفس اللوّامة﴾: توقظك، تند م، تحاسبك.

﴿النفس المطمئنة﴾: بلغت السلا م، ورضيت وأرضت.

وهذا التقسيم ليس فقط نفسيًا، بل سلوكي عملي.

فمن تسيطر عليه نفسه الغضبى، يتصرف بعنف دون تفكير، ومن تسيطر عليه نفسه الشهوانية، يُبرر المعصية، ويُغطّيها بمنطقٍ هش.

لكن من يجعل العقل هو الحَكم، فإن النفس تنضبط، وتتعوّد على التوازن.

وهذا ما عبّر عنه النبي ﷺ بقوله:

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

✦ الجزء الرابع: حين ينقلب العقل إلى خاد م للنفس

ليست المشكلة أن تكون لك نفس، فكلنا نملكها.

المشكلة حين يتحوّل العقل من قائدٍ إلى خاد مٍ للنفس.

حين يُصبح العقل وسيلة لتبرير الشهوات، والبحث عن مَخارج تبيح الباطل.

قال تعالى عن أهل الأهواء:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

هنا لم يكن الجهل هو المشكلة... بل كان العلم موجوداً، لكن تم تسخيره لخدمة الهوى.

وهذا من أخطر أنواع الانحراف، لأنه يُظهر على السطح سلوكًا عقلانيًا، لكنه في العمق مسيّرٌ بشهوة خفيّة.

✦ الجزء الخامس: متى يتصالح العقل مع النفس؟ ومتى يُصبح الإنسان سويًّا؟

الإنسان السوي ليس من يُقصي نفسه ويقتل مشاعره، ولا من يُطلق العنان لها دون عقل.

الإنسان السوي هو الذي يُروّض نفسه، ويصالحها مع عقله، ويُشبع حاجاتها بما يرضي اللّه.

حين يحدث هذا التوازن، تتغيّر طريقة التفكير، وردود الأفعال، وتصبح قرارات الإنسان متزنة، ناضجة، نابعة من عقلٍ يقظ ونفسٍ مطمئنة.

وقد قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

فالفلاح كل الفلاح في تزكية النفس، وليس قتلها... في قيادتها بالعقل، لا خدمتها به.

الباب السابع: التوازن بين الحب والخوف والرجاء – ثلاثي النفس المؤمنة

✦ الجزء الأول: النفس لا تستقيم بالعقل وحده

قد يظن البعض أن العقل كافٍ لهداية الإنسان، وأن المنطق وحده قادر على تقويم سلوكه.

لكن الواقع أن الإنسان مكوّن من عقلٍ وقلبٍ ونفس، وكلٌ منهم له غذاؤه، وكلٌ منهم إذا تُرك جائعًا… اختلّت المنظومة بأكملها.

قال تعالى:

﴿وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

فكل ما في داخلك يجب أن يتوجه إلى اللّه:

عقلك يبحث عن الحق.

قلبك يشتاق إلى القرب.

نفسك تطمئن بالأمان.

لكن هذا لن يحدث إلا إذا توازن الثلاثي المقدّس: الحب والخوف والرجاء.

✦ الجزء الثاني: المحبة — أساس العلاقة مع اللّه

القرآن لم يُقدّم اللّه للناس فقط بصفته الخالق أو القهّار، بل قدّمه بصفته:

الرحمن الرحيم، الغفور الودود، البرّ اللطيف.

قال تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

ولم يقل: "يطيعونه" أو "يخشونه"، بل بدأ بالحب.

المحبة هي الدافع الأعظم للسلوك المستقيم، لأنها تُحوّل الطاعة إلى لذّة، وتحوّل العبادة إلى لقاءٍ محبوب.

حين يُحبّ الإنسان ربّه، فإن النفس تهدأ، والعقل يطمئن، والسلوك ينضبط.

✦ الجزء الثالث: الخوف — الكابح الذي يمنع الانزلاق

لكن الحب وحده قد يجعل النفس تظن أن الرحمة مفتوحة دائمًا، وقد تتساهل.

وهنا يأتي الخوف، لا ليُدمّر النفس، بل ليحميها.

قال تعالى:

﴿وَيَحْذَرُ الْمُؤْمِنُونَ أَن تُحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ﴾

فالمؤمن الحقّ يعيش خوفًا إيجابيًا… لا خوفًا يُربكه، بل يُقوّمه.

قال رسول الله ﷺ:

«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»

الخوف يُعيد النفس إلى صوابها، ويُذكّرها بأن هناك حسابًا وجزاءً.

✦ الجزء الرابع: الرجاء — باب الأمل الدائم

الإنسان قد يسقط، وقد يضعف، وقد يُذنب، فإذا بقي في الخوف، تحطّمت نفسه.

لكن الإسلام لا يُغلق الأبواب، بل يفتح بابًا واسعًا اسمه: الرجاء.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ، لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾

الرجاء هو الذي يُعطي الإنسان القوّة ليبدأ من جديد… ليُصلح… ليعود.

فلا معنى للحب بلا خوف، ولا للخوف بلا رجاء، ولا للرجاء بلا حب.

الثلاثة معًا هم غذاء النفس المؤمنة، وهم مفتاح استقامتها.

✦ الجزء الخامس: كيف تُعيد ضبط ميزانك الداخلي؟

إذا وجدتَ نفسك تتهاون في الطاعات... فراجع "محبتك لله".

وإذا وجدتَ قلبك جافًا... فاجلس مع آيات "الرحمة والمغفرة".

وإذا رأيت نفسك تتكل على المغفرة وتتمادى... فاقرأ عن "الوعيد والعذاب".

وإذا أحسست أن الذنب سدّ عليك الأمل... فاجعل آية:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هي وقودك.

التوازن ليس أن تكون معتدلًا دائمًا، بل أن تُراجع نفسك كلما مالت، فتُعيدها إلى نقطة الاستواء.

الباب الثامن: فقه الاختيار – هل الإنسان مسيّر أم مخيّر؟

✦ الجزء الأول: سؤال قديم... وجدل لا ينتهي

منذ قرون والناس يتساءلون:

هل الإنسان يملك إرادته؟

هل يختار سلوكه بحرية؟

أم أن كل شيء مكتوب ومفروض عليه من قبل أن يُولد؟

لقد نشأ حول هذا السؤال مذاهب، وانقسمت الفرق، وتاهت العقول بين "الجبريّة" التي تُسقط المسؤولية عن الإنسان، و"القدريّة" التي تُحمّله فوق ما يطيق، بينما القرآن جاء بالقول الفصل: الإنسان مخيّر في مواضع، ومسيّر في أخرى، ولكنّه دومًا مسؤول عن اختياره حين يكون هو من صنعه.

✦ الجزء الثاني: ما الذي يُسيَّر فيه الإنسان؟

هناك أمور لا دخل للإنسان فيها:

ميلاده، نسبه، لونه، جنسه، قومه.

أجله، رزقه، صحّته.

ما يجري عليه من أقدارٍ لا سلطة له عليها.

قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾

هنا الإنسان مسيّر، وهذا لا ينتقص من كرامته، بل يضعه في مقام العبد أمام تدبير الرب.

✦ الجزء الثالث: متى يكون الإنسان مخيّرًا بحقّ؟

حين يقف أما م فعلٍ أو تركٍ، ويعلم أنه يملك القدرة على الاختيار، ويفهم العواقب... هنا تبدأ حريته.

قال تعالى:

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾

وهذا ليس إذنًا بالكفر، بل إثبات للحرية.

وقال:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

الإنسان يُحاسَب لا لأنه أخطأ، بل لأنه اختار الخطأ وهو يعلم.

ويُثاب لا لأنه أصاب فحسب، بل لأنه سلك طريق الصواب عن وعيٍ وقصد.

✦ الجزء الرابع: الحرية الأخلاقية والمسؤولية الشرعية

في علم النفس، كثير من المدارس تردّ السلوك إلى أسباب:

بيئة الطفولة.

ضغوط المجتمع.

دوافع اللاوعي.

لكن القرآن يُحمّلك مسؤولية سلوكك، مهما كانت دوافعك، لأنك تملك القرار الأخير.

قال تعالى:

﴿وَكُلُّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾

أي أن عمله ومصيره في رقبته، لا رقبة غيره.

الحرية هنا ليست فقط "حرية الفعل"، بل حرية النيّة، وصدق الإرادة، وتحمل العواقب.

✦ الجزء الخامس: لا جبر في الطاعة، ولا عذر في المعصية

من يسرق، أو يظلم، أو يخون... ثم يقول "هذا قدري"، فهو يكذب على اللّه وعلى نفسه.

ولو كان الأمر كذلك، ما استقامت شريعة، ولا قامت عدالة، ولا نُصِبَت محكمة.

ومن يُطيع، ويُجاهد نفسه، ويكبح رغباته... فهو لا يفعل ذلك لأنه مجبور، بل لأنه اختار،

واختياره هذا هو دليل نضجه، وسبب علوّه.

ولذا قال اللّه في جزاء المؤمنين:

﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وليس: "بما كُتب عليهم"، بل "بما كسبت أيديهم".

✦ إذاً، فاختيارك هو ما يعرّفك، وهو ما تُبعث عليه، وهو ما يُوزن في ميزانك.

فإن أردت أن تعرف من أنت... فانظر لما تختاره حين لا يراك أحد.

الباب التاسع: الانفعال والعقل – كيف يفكر الإنسان تحت ضغط العاطفة؟

✦ الجزء الأول: حين تتكلّم العاطفة... ويصمت المنطق

الإنسان لا يُفكر دومًا بهدوء.

هناك لحظات تنقلب فيها الموازين:

الغضب يفقده الاتزان،

الخوف يُعطّل رؤيته،

الحزن يُثقل قراره،

الفرح يُغريه بالاندفاع.

وفي تلك اللحظات، لا يعود العقل حكَمًا عادلًا، بل يصبح تابعًا للعاطفة... يُبرّر، ويبحث عن أدلّة لما تمليه المشاعر.

وقد أشار القرآن لهذا الاضطراب حين وصف حال الإنسان تحت الضغط فقال:

﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

أي أن النفس، في أصلها، سريعة الاضطراب إن لم يُروّضها الإيمان والعقل.

✦ الجزء الثاني: الغضب... قيد العقل وسرعة الانفجار

في لحظة غضب، قد يُخرّب الإنسان بيتًا، ويهدم علاقات عمر، ثم يندم بعد دقائق.

الغضب يُشوّش الرؤية، ويُحرّك اللسان، ويُطلق اليد، ثم يترك صاحبه يلعق الندم.

وقد حذّر النبي ﷺ من هذا الانفعال حين سُئل:

"أوصني يا رسول الله!"

فقال: "لا تغضب."

ثم كرّرها: "لا تغضب."

ثم قال: "لا تغضب."

لأن الغضب لحظة واحدة، لكنه قد يصنع أثرًا يدوم سنينًا.

✦ الجزء الثالث: الحزن... كيف يشوّه التفكير؟

الحزن يجعل الإنسان يرى الدنيا من زاوية ضيقة، كأنّه ينظر من ثقب.

يتضخّم الألم في داخله حتى يُغطي كل شيء، فيظن أن ما هو فيه دائم، وأنه لا مخرج.

وقد مرّ الحزن حتى على الأنبياء، لكنه لم يُعطّلهم، بل زادهم قربًا:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ، وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

الحزن في ذاته ليس ضعفًا، لكنه قد يصبح خطرًا إن سكن العقل وأغلق أبواب الأمل.

✦ الجزء الرابع: الخوف... حين يتحكّم في القرار

الخوف قد يمنعك من المحاولة، وقد يُشلك عن الحق، وقد يُغريك بالتنازل.

وقد وصف اللّه حال بعض الناس حين قال:

﴿فَأَخْلَفُوا الْعَهْدَ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَكَانُوا يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾

فالخوف من الناس، من الفشل، من المستقبل، قد يُفسد الرؤية ويقتل المبادرة.

لكن الخوف الإيجابي، كخشية اللّه، يُنظّم السلوك، ويُوجّه القرار نحو الرشد.

✦ الجزء الخامس: كيف نوازن بين العاطفة والعقل؟

القرآن لا يُلغي العاطفة، لكنه يهذّبها، ويُعلي من قيمة ضبطها لا كبتها.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

وقال:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

وصفُ النفس في القرآن ليس وصفًا ملائكيًا، بل واقعيًّا... يُقرّ بوجود المشاعر، لكنه يُعلّم كيف لا تصبح هي المتحكّمة.

لذلك فالرشد العقلي يبدأ حين يعرف الإنسان لحظات ضعفه، ويعترف بها، ويُدرّب نفسه على التحكم لا القمع.

✦ إنّ أقوى الناس ليس من لا يغضب، أو لا يخاف، أو لا يحزن...

بل من يملك زمام نفسه عند الانفعال، ويُحكّم العقل وهو يعلم أن لحظة واحدة قد تصنع مصيرًا.

الباب العاشر: القرآن وعلم النفس – هل يستغني الإنسان بالوحي عن التحليل النفسي؟

✦ الجزء الأول: الفجوة بين المدارس النفسية والوحي

منذ نشأة علم النفس الغربي، حاول المفكرون وضع نظريات لتفسير دوافع الإنسان وسلوكه، فتعددت المدارس:

مدرسة التحليل النفسي لـ فرويد التي رأت أن الإنسان تحركه الرغبات الجنسية المكبوتة،

والمدرسة السلوكية التي اختزلته في ردود أفعال،

والمدرسة الإنسانية التي حاولت إبراز طبيعته الأخلاقية،

والمدرسة المعرفية التي جعلت تفكيره هو المحدد الأساسي.

لكن كل هذه المدارس، على تنوعها، انطلقت من نظرة مادية صرفة، أغفلت الروح، وأنكرت الغيب، وجعلت الإنسان أسيراً لماضيه أو لمجتمعه أو لعقله فقط.

أما القرآن، فقد جاء بنظرة تكاملية... ترى في الإنسان جسداً وروحًا، عقلًا وقلبًا، إرادة واختياراً، مع ارتباط وثيق بالله عز وجل.

✦ الجزء الثاني: هل يحتاج المسلم إلى علم النفس الحديث؟

ليس الجواب سهلًا بالإيجاب أو النفي، لكن الواضح أن القرآن:

قدّم تصوراً متكاملًا عن النفس الإنسانية،

ووضع قواعد تهذيبها،

وبيّن العوامل المؤثرة فيها،

وربط السلوك بالعقيدة،

وجعل الإيمان طريق التزكية، لا التحليل العقلي فقط.

لكن علم النفس الحديث، رغم قصوره، قد يُقدّم أدوات لفهم بعض جوانب النفس، كأنماط التفكير، وأنواع الشخصية، وأساليب التربية والعلاج، إذا ما خُضعت لضوابط الشرع ونُقيت من الشوائب.

فالميزان: هل يتفق مع الوحي أم يخالفه؟

✦ الجزء الثالث: علم النفس في ضوء القرآن

القرآن الكريم لم يأتِ ككتاب "طب نفسي"، لكنه:

تحدث عن الخوف والقلق والحزن والغضب،

وصف أمراض القلب كالرياء، والنفاق، والكبر، والهوى،

بيّن آثار الطمأنينة، والذكر، والصبر، والتوبة، والتوكل،

كشف طبيعة الإنسان في مواقف مختلفة: {وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا}، {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}، {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}.

وهكذا، رسم الوحي خريطة النفس الإنسانية، بدقة تتجاوز أي نظرية.

✦ الجزء الرابع: هل يكفي الوحي وحده؟

الوحي يُوجّه النفس، يُزكّيها، يهديها، يُربّيها، وهذا هو الأصل.

لكن المسلم إذا احتاج علاجًا نفسيًا، فلا حرج في الاستفادة من علم النفس، ما دام العلاج:

لا يُخالف العقيدة،

لا يُكرّس التساهل في الذنوب،

لا يُفرّغ السلوك من مسؤوليته الأخلاقية.

فلا يصح أن نُبرّر الأخطاء النفسية بإسقاط المسؤولية، أو نُحلل الحرام بتفسير علمي، بل يبقى القرآن هو النور، وغيره مجرّد وسائل.

✦ الجزء الخامس: خاتمة الكتاب — معرفة النفس طريق لمعرفة اللّه

من تأمّل في نفسه، عرف ضعفه، وعرف ربه.

قال تعالى:

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

وكل من أراد أن يُصلح ظاهره، وجب أن يبدأ بباطنه.

وكل من طلب السكينة، فلن يجدها في الكتب فقط، بل في كلمة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

لذلك فهذا الكتاب ليس نهاية، بل بداية...

بداية رحلة نحو الداخل، نحو النفس، نحو اللّه.

فمن عرف نفسه، فقد بدأ طريقه إلى الحقيقة الكبرى:

"من عرف نفسه، عرف ربه."

نهاية الكتاب

حين يصبح الإنسان رسالة...

ليس هذا الكتاب سوى محاولة صادقة للغوص في أغوار النفس، لا من باب الادّعاء، بل من باب الاكتشاف.
وقد أردنا أن نرسم للقارئ صورةً غير تقليدية عن العلاقة بين المنطق، والنفس، والسلوك الإنساني، كما جاء بها القرآن الكريم، وهذّبتها السنة النبوية، وأيّدتها التجربة الحية لمن تدبّر آيات الله في كتابه، وفي نفسه، وفي الحياة.

لقد حاولنا أن نُظهر كيف أن الوحي لا ينفصل عن الفطرة، وكيف أن النص الإلهي لم يُغفل أدق تفاصيل الشعور الإنساني، ولم يتجاهل تعقيدات النفس، ولا خفايا القلب، بل كشفها، ووجّهها، وهذّبها، وربطها بغاية سامية تتجاوز حدود اللحظة والمكان والهوى.

ففي عالم تتقاذفه الفلسفات والتيارات النفسية المتغيرة، يبقى كتاب الله ثابتًا، لا يتبدّل، ولا يذوب في فوضى التأويل. ومن سار على هديه، لم يتخبط في دهاليز الذات، بل وجد في كل آية مرآةً صافية يرى فيها نفسه على حقيقتها، لا كما تُريدها الأهواء ولا كما تُشكّلها الضغوط.

أيها القارئ الكريم،
إنك لست كائنًا ميكانيكيًا، ولا رقمًا في معادلة سلوكية، ولا ضحية لاضطرابات لا تُغتفر...
أنت مخلوق مُكرَّم، عاقل، حرّ، مكلّف، قادر على أن يُغيّر نفسه، ويُهذّب طباعه، ويعلو فوق أهوائه، ويستعيد توازنه مهما تاه.

ومن ظن أن القرآن جاء ليُقيد حرية النفس، لم يقرأه جيداً؛
فالقرآن لا يُكبل، بل يُحرر.
لا يُرهب النفس، بل يُنيرها.
ولا يُقصي المنطق، بل يُعيده إلى مساره الصحيح، حين يخضع للخالق، لا للمخلوق.

وفي النهاية...
إننا لا نزعم الكمال فيما كتبنا، بل نضعه في يدك أيها القارئ، على أمل أن يكون بابًا لرحلة تبدأ الآن، رحلة لا تنتهي بين دفتي كتاب، بل تمتد بين دفتي الحياة.

فابحث في نفسك، وتأمّل في قلبك، وارجع إلى ربك...
ففي داخلك صوت لا يكذب، ووحي لا يُطفأ، إذا صدقت النية وأخلصت الطريق.

وصلى الله وسلم على من خُلق قرآناً يمشي بين الناس، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.
والحمد لله أولاً وآخراً، ظاهراً وباطناً.

أسئلة من هذا الكتاب

1. ما العلاقة بين المنطق والوحي؟

الوحي لا يُعارض المنطق، بل يُنقيه من الانحرافات ويعيده إلى الفطرة.

2. هل يكفي العقل وحده لفهم سلوك الإنسان؟

لا، لأن العقل أداة جزئية، بينما النفس تتأثر بالروح والغيب والعاطفة، وهو ما يُكمله الوحي.

3. كيف عالج القرآن أمراض النفس؟

عالجها بالتزكية، والتوبة، واليقين، والربط بين السلوك والنية، وليس فقط بالتحليل العقلي.

4. ما الفرق بين النظرة الغربية والقرآنية للإنسان؟

الغربية مادية، تعتمد على الغرائز أو البيئة؛ أما القرآنية فشمولية، تجمع بين الجسد والروح والعقل والإرادة.

5. هل في القرآن مفاهيم نفسية؟

نعم، تحدث عن الخوف، الحزن، القلق، الفرح، الكبر، الهوى، وغيرها بدقة عميقة.

6. هل يستطيع الإنسان تغيير نفسه؟

نعم، والقرآن أكد ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

7. ما دور السنة النبوية في فهم النفس؟

السنة تُجسّد تطبيقات عملية للتزكية النفسية، وتُرشد لضبط الانفعالات، وتُعلّمنا الرحمة والعدل والنية.

8. هل يُمكن الاستفادة من علم النفس الحديث؟

نعم، بشرط غربلته من المخالفات العقدية والأخلاقية، وجعله خادمًا لا حاكمًا على النص الشرعي.

9. لماذا تكثر الأزمات النفسية رغم تقد م العلم؟

لأن الإنسان ابتعد عن خالقه، وفصل العلم عن الروح، وظن أن التوازن يتحقق بالمادة فقط.

10. ما الطريق إلى سكينة النفس؟

بطهارة القلب، وذكر الله، وتصحيح النية، وربط السلوك بالعقيدة، والسير على هدي الوحي.

- تمت بحمد الله -